الإيمان
وأثره في القلب

كتبه
ياسر برهامي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الخلفاء الراشدين
الإسكندرية

دار الفتح الإسلامي
بمصطفى كامل

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الخلفاء الراشدين
الأسكندرية

رقم الإيداع
٢٠٠٧/٢٠٩١٠

دار الخلفاء الراشدين
الأسكندرية - أبو سليمان - ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٠٥٠١٣١٥١ - ٠١٢٠١٥٣٩٠٨

دار الفتح الإسلامي
الأسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٢٧٧١٠٦٠ - ٠١٠٦٧١٤٧٦٨

مقدمة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ

بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فإن المؤمن عليه أن يتعظ بما يسمع ويقرأ من كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - عما سوف ينتهي إليه أمره، فكما قال عتبة بن غزوان ﵁: «إن الدنيا قد آذنت بصرم(١)، وقد وَلَّتْ حَذَّاء(٢)، ولم يبْقَ منها إلا كصُبابَةِ الإناءِ(٣)، يَتَصَابُّها صاحبُها» قد آذنت الدنيا بانتهاء، وولت مسرعة توشك أن تنتهي، وإنما يدرك الناس ذلك إذا قاموا من قبورهم يوم القيامة ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٣، ١٠٤]

هكذا يرى الناس مدة بقائهم في الدنيا ومدة بقائهم في القبور كأنها يوم أو بعض يوم.

---

(١) صرم: انقضاء.

(٢) حذاء: مسرعة.

(٣) صبابة الإناء: ما يتبقى فيه بعد الشرب فيصبه الشارب في فمه.

قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٦].

لقد جعل الله مرور الليل والنهار والأسابيع والشهور دليلًا لكل عاقل وكل ذي لب على أن عمره كذلك ينتهي.

وكان النبي ﷺ يستشعر ذلك المعنى حين يقول في أذكار الصباح والمساء ما يدل على ذلك، فيقول: «اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا وَبِكَ أَمْسَيْنَا وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ النُّشُورُ»(١).

ما أحوجنا أن نتدبر هذه المعاني.

---

(١) رواه الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، وصححه الألباني (٩١١) «صحيح الأدب المفرد».

وُجِدْنا في هذه الحياة من غير أن نُستشار أو نطلب، ووهب الله لنا الحياة، وكذلك نرحل عنها من غير أن نستشار أو نطلب، إنما نؤخذ قهرًا ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [الزمر:٤] ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢].

وبين تلك اللحظتين: بين لحظة ولادتنا على وجه الأرض، ولحظة رحيلنا، علينا أن ندرك أننا عبيد مقهورون لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، فقراء إليه - عَزَّ وَجَلَّ - لا غنى لنا عنه طرفة عين.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر:١٥-١٧].

كم من الناس قرأ هذه الآيات من قبلُ، وكانوا يعيشون على وجه الأرض، وكنا نحن بعد ذلك الخلقَ الجديد، رحلوا وذهب الله بهم، فالفعل كان مُعلقًا على المشيئة فإذا به يقع بالفعل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ [إبراهيم:١٩].

أين الآباء والأجداد وأجداد الأجداد؟ رحل الجميع، الكل ميت والكل مُنْتهٍ هكذا جئنا نحن إلى هذه الحياة، مازلنا نتلو ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [إبراهيم:١٩] نحن الخلق الجديد، ويوشك بعد حين أن نرحل نحن، ويذهب الله بنا ويأت بأقوامٍ آخرين يتلون هذه الآية، أين هم الآن؟ أين الخلق الجديد الآن؟ في التراب، في الماء، في أصلاب الرجال، أوفي أرحام النساء، هذا الذي أوشك أن يكون خلقًا جديدًا، وأما الباقي فهو في علم الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

الواجب على الإنسان أن يتفكر في بدايته ونهايته، ليعلم عجزه وفقره وضعفه وحاجته لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

أكثر الناس لا يستشعر ذلك فيما بين ولادته ونهايته، لا يستشعر أنه فقير، بل يرى نفسه مستغنيًا فيطغى ويتكبر ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق:٦،٧].

حين يرى نفسه مستغنيًا، له قوة وإرادة وقدرة، وله أمر ونهي، وله أتباع وأشياع وخدم ومال وأهل وولد، يرى نفسه

متصرفًا، وهو في الحقيقة ممتحن، هو عبدٌ مملوك في صورة ملك، وكم من أناس كانوا ملء الدنيا سمعًا وبصرًا، أتاهم الموت في لحظة ليدلنا ذلك الأمر على الموعظة، ويدلنا أننا عبيد لا نملك شيئًا، وأن الله هو الملك لا شريك له في ملكه. «لَا إِلَـهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

أكثر الناس ينسى حاجته إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، ويظن نفسه مستغنيًا كما كفر صاحب الجنة، الذي قال معجبًا بنفسه عندما دخل جنته، فقال لصاحبه: ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف:٣٤-٣٦]. لماذا كفر هذا الرجل؟ ليس كفره لأنه أنكر البعث فقط أو شك فيه، عندما قال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ لقد كان هذا الرجل مقرًا بوجود الله، وأن الله هو الذي يعطي، لأنه قال: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾.

ولم تذكر الآيات أنه كان يعبد أصنامًا أو أحجارًا، لكن هناك بلا شك عبودية لغير الله، لقد أشرك هذا الرجل بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - حين عبد هواه وشيطانه وعبد المال الذي سخره الله له، فصار عبدًا لديه - نعوذ بالله من ذلك -.

وربما زاد على ذلك تألهًا لغير الله وتعبدًا لغير الله بعبادة الأوثان أو الأشخاص أو أي معبود دون الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، لكن الذي ذكره القرآن أن الرجل كفر بالذي خلقه من تراب ثم من نطفة حين نسي فقره وظن أنه يلزم له عند الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في الآخرة مثل ما أعطي في الدنيا، لأنه غني فلابد أن يكون كل شيء له، لقد تعود أن يشتري كل شيء بالمال، حتى ظن أن الجنة أيضًا لابد أن تكون لأصحاب الأموال كما قال - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عن الإنسان الكافر إذا أزال الله - عَزَّ وَجَلَّ - ما به من ضر وأذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦]

أكثر الناس يظن هذا، فأنكر القرآن عليهم ظنهم هذا فقال تَعَالَىٰ ﴿ كَلَّا ﴾ أي ليس الإكرام ولا الإهانة بكثرة المال ولا بقلته، إنما الإهانة ألا تسجد لله، ألا تخضع له، الإهانة أن تعبد غيره، أن تصير عبدًا عند مخلوق مثلك.

ألم تقرأ قول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج:١٨]، هؤلاء الذين لم يسجدوا لم يكرمهم الله بالسجود له - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، وإنما الإكرام أن تكون عبدًا لله، ويعتقك الرب من أن تلتزم العبودية والرق لمخلوق مثلك، له ند ومثيل، فالإكرام أن تعبد الله وحده لا شريك له، ولا تُهان بالشرك الذي أهان الله به هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى والمنافقين والمشركين، كل هؤلاء متعززون - فيما يبدو للناس - بما أعطاهم الله من القوة والسلطان ويتكبرون على عباد الله ويؤذونهم ويظلمونهم ويظنون أنهم أصحاب السلطان في

الأرض وأصحاب الكلمة النافذة، والله - عَزَّ وَجَلَّ - قد أهانهم أعظم إهانة حين حرمهم من الإسلام ومنعهم الإيمان؛ فهم ليسوا أهلًا لهذا الدين، وليسوا أهلًا لهذه النعمة، فتركهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - يسقطون، ولو كانوا يساوون عنده شيئًا لأنقذهم ولأخذ بأيديهم، هكذا أخبر الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨]، بهذا يتعزز الإنسان وهكذا يعزه الله العزيز، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر:١٠]، مكر بائر مهما طال مداه، ومهما أثر في الأرض، توشك أن تزول منه الجبال، ولكن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يحبطه ويبطله ويذهبه ﴿ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ:٤٩].

إن أكثر الناس في غفلة عن حقيقة فقرهم إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - ربهم وخالقهم ومدبرهم، وهذا يدفعهم إلى أن ينسوا الفقر الآخر إلى إلههم ومعبودهم.

فكما أن العبد مفتقر إلى الله خالقًا رازقًا مدبرًا، فهو مفتقر أيضًا إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - إلهًا معبودًا محبوبًا مألوهًا، كما أن الإنسان يولد عاريًا يحتاج إلى ثوب يلبسه، جائعًا يحتاج إلى طعام يأكله، محتاجًا إلى ثدي أمه، وهو عاجز عن أن ينال شيئًا بيده أو برجله أو بعقله أو بلسانه، وإنما يسر الله - عَزَّ وَجَلَّ - له الرزق، فكذلك يولد قلبه جائعًا فقيرًا، يولد محتاجًا إلى من يحبه ويألهه ويخضع له وينقاد له، وأكثر الخلق في الغفلة الأولى - كما ذكرنا - غفلة عن فقرهم إلى الله ربًا، فهم أكثر غفلة عن أنهم فقراء إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - إلهًا، فقراء إلى عبوديته، هم يحتاجون إلى أن يعبدوا الله، فلقد خلقوا يميلون إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - ويشتاقون إليه، والقلوب تتألم إذا لم تُعْطَ غذاءها، وشفاءها، وما تحتاجه من التوجه إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

إن الناس لا يدرون من أين يأتيهم الشقاء؟ من أين يأتيهم الألم؟ من أين تأتيهم التعاسة؟ فيظنون أن ذلك من نقص المال، أو من نقص الرياسة، أو من نقص الأتباع، أو من

نقص الملك والسلطان، أو من نقص اللذة الجنسية، أو من نقص ما يريدون من المأكل والمشرب، ويسعون وراء ذلك، فلا يجدون ما يسد ذلك الشقاء، ولا يجدون ما يسد هذه الحاجة، وهذا الفقر، فإذا بهم يبحثون عن مزيد من اللذة المسكرة لكي يسكن ذلك الألم، فيسكن مؤقتًا ثم يعود مرة أخرى جائع القلب، عطشان الفؤاد، مشتاقًا لم يعط حاجته.

ما أكثر أن تموت القلوب حين لا تعطى حاجتها من الافتقار إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - والتوجه إليه، وإرادة وجهه وابتغاء ثوابه، وطلب فضله، والخوف منه، والتوكل عليه، والزهد في الدنيا، وابتغاء ما عنده - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وشكر نعمه، والصبر على بلائه.

كل هذه العبادات غذاء القلب، والقرآن يتضمنها، لذا كان القرآن غذاءً وشفاءً، وما أعظم منة الله - عَزَّ وَجَلَّ - على عباده المؤمنين، فإذا تأملنا منته على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علمنا أنه بهذا الغذاء والشراب للقلب استغنى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

عن الطعام والشراب أيامًا وليالِيَ متواصلة، فهو ليس كهيئتنا، فإن له في ذلك من الفتح والعطاء والفضل العظيم ما ليس للناس، فلقد كان ﷺ ينهى عن الوصال، وكان يواصل ﷺ، فقيل له: «إِنَّكَ تُوَاصِلُ» فقال: «وَأَيُّكُمْ مِثْلِي»؟، وفي رواية: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ - أي: عند ربي - يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»(١)، وهذا غذاء وشراب لقلبه ﷺ، استغنى به بالفعل عن الطعام والشراب، بما لا يستطيعه الناس، ولو فعلوه لماتوا وهلكوا.

وكان ﷺ الشفيق على أمته الرحيم الحريص على ما يصلحهم، فنهاهم عن الوصال وأذن لهم في الوصال إلى السحر. وقال: «لَا تُوَاصِلُوا فَأَيُّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ حَتَّى السَّحَرِ»(٢)، وإن كان الأفضل أن يفطر بمجرد غروب الشمس،

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

(٢) رواه البخاري، والسَّحَر: وقت السحور وهو قبيل الفجر.

لقوله ﷺ «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْر»(١) وحاجة العبد إلى ربه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وإلى عبادته وإلى التوجه إليه تحصل إن أكل وشرب، ما دام قد أكل مما أحله الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأحبُ الناس إلى الله أعجلهم فطرًا كما ثبت في السنة.

ولكن لا يتحكم فيه الطعام والشراب والشهوة، بل هو يتحكم فيها فيكون أعلى قدرًا من أن تتحكم فيه الرغبة، وهو عبدٌ لله ليس عبدًا لشهوته، ليس عبدًا لهواه، ولا لماله أو لتلك الأوضاع أو العادات والتقاليد.

أكثر الناس يرى العبادة ثقيلة صعبة، يراها تكليفًا شاقًا نعم فيها مشقة للبدن وابتلاء من الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ولكن إذا ذاق العبد حلاوتها فإن مشقتها تزول عن البدن، كالشراب إذا كانت فيه مرارة يسيرة لكن إذا وضع فيه العسل الكثير جدًا أذهب المرارة، أذهب ما يمكن أن يكون فيه من صعوبة لما

(١) رواه البخاري، ومسلم.

وجُد فيه من الحلاوة، ولذا سهل على أهل الإيمان بذل النفوس والأموال والأولاد والأوطان في سبيل الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

بل قدموا ذلك راضين فرحين مستبشرين بما يسر الله لهم بما وجدوا من حلاوة الإيمان والشوق إلى لقاء الرحمن - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وهؤلاء القوم يرون الدنيا كما هي عليه عند الله لا كما يراها الناس، ألم تقرأ قول الله - عَزَّ وَجَلَّ - في المؤمنين مع طالوت، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٤٩، ٢٥١]،

نعم والله ما أحوجنا إلى مثل هذه المعاني في صراعنا المر مع اليهود والنصارى والكفار والمنافقين.

ثم إننا لن ننتصر عليهم إلا إذا أيقنا بلقاء الله ورأينا الدنيا كما هي عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - صغيرة تافهة حقيرة لا تساوي عند الله شيئًا، حتى نرى أن الأغلب الأعم والقاعدة أن الفئة القليلة هي التي تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ ﴾ وكم هنا للتكثير، أي كثيرًا ما غلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله، وقد ثقلت كفة هذه الفئة لأنها مع الله وكان الله معها، ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ لأنها أيقنت بلقاء الله، ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ ﴾ هذا الذي شغلهم وأداموا التفكير فيه واهتموا به، لا يهتمون بما يهتم به الناس كم نحن؟ وكم هم؟ ما عندنا وما عندهم من السلاح والعتاد؟ لقد امتلأت قلوبهم بما أفاض الله - عَزَّ وَجَلَّ - عليها من النعمة، والتوجه إليه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فاستغنت بذلك عمن سوى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ [فاطر:١٥-١٩].

من أدرك هذه المعاني فهو البصير، ومن لم يدركها فهو الأعمى - أعمى القلب - ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ ظلمات الكفر لا تستوي مع نور الإيمان، إن الإيمان إذا دخل القلب استنار وانشرح واتسع لما يوجد في هذه الدنيا من آلام ومتاعب ومشاق فيتحملها راضيًا في سبيل الله، ورأى حقائق هذا الوجود ﴿ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ والقدرة له جميعًا، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله،

هكذا سماها الرسول ﷺ «كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّـةِ»(١)، لأن هذه الكلمة هي حقيقة الوجود.

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ حال أهل الإيمان في ظل، وفي راحة، وفي سكينة، وفي طمأنينة، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

أما الكفار فهم قبل النار في نار، ولو لم يكـن عـذابهم إلا حجاب قلوبهم عن الله - عَزَّ وَجَلَّ - لكفى بـه عـذابًا - والله - في الدنيا، ولكنهم أُضـيف لهـم إلى ذلـك حـر النـار، وضـيق القبور، وعذاب النشور، نسأل الله العافية من ذلك كله.

قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [المطففين:١٥، ١٦].

---

(١) قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: قـال لي النبـي ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟» فَقُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «قُلْ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله» رواه البخاري، ومسلم.

حُجبت قلوبهم فشقيت في الدنيا، وحُجبت أعينهم عن الله فلم تره - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - حين رآه المؤمنون في جنة الخلد، ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾، سبحان الله الذي فاوت بين البشر في أرزاقهم، تأمل ذلك لتلحظه، لتتأكد أن هناك أيضًا من التفاوت في القلوب والأعمال، ما يترتب عليه التفاوت في الآخرة بين أعلى درجات النعيم في الفردوس الأعلى تحت عرش الرحمن، وبين أسفل دركات الجحيم مع كل شيطان مريد، مع الكفرة والمنافقين ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٢١].

فحال أهل الإيمان في ظل، وحال أهل الكفر في حَرور، ولا يستوي الظل ولا الحرور.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ مجتمع المؤمنين مجتمع الأحياء يدركون معاني الحياة - حياة القلب - قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠]،

وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

والكفار أموات لا يشعرون، ماذا يطلب مجتمعهم؟ إنه يطلب الشهوات، والمال، ويجري وراء كل دناءة وحقارة، تأملوا وانظروا ماذا يريدون أن يجعلوه منهاج حياتنا؟ لا يريدون إلا أن فلانًا يحب فلانة، وأن فلانًا يقتل فلانًا، وفلانًا يمكر بفلان من أجل أن يكون له الملك والرياسة، هكذا تملأ المنكرات والفواحش دنياهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور:١٩].

تأمل حياتهم وكيف يعيشون في مجتمعاتهم؟ من عاش في هذه المجتمعات رأى - والله - أقبح مما في مجتمعات البهائم والوحوش، وما يفعلونه أمام أعيننا بالمسلمين يدلنا على أنهم أحط من هذه الوحوش ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٤]، والله هم أضل، وحياتهم نكد وشقاء،

وفظائع، وقذارة، ونجاسة، وللأسف أن كثيرًا من المسلمين يرتضون أن تكون حياتهم كذلك، ويعيشون في الجملة بنفس المفاهيم.

وهذه المناهج المنحرفة في الحياة التي لا تعرف في هذه الدنيا إلا المال والنساء والرياسة والملك، لا تعرف إلا الغطرسة والطغيان والكبر والمكر والحسد والحقد والفساد، فهذه الحياة لا يمكن أن تكون حياةً أبدًا، بل هي موت - والعياذ بالله -.

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [طر:٢٢].

وهم يريدون لنا أن نموت كما ماتوا، فهم شياطين، أعداء للإنسانية، هؤلاء الكفار - وعلى رأسهم اليهود المجرمون - ماتت قلوبهم فلم تعرف حقيقة الإيمان أبدًا.

ويريدون أن ينشروا الكفر والضلال في الدنيا، ولو بأن يخرجوا من بين أظهرهم من ينكر وجود الله بالكلية، ومن ينكر خلْقَه للعالم، فهم قد أخرجوا **ماركس** ليقول: (لا إله) وأخرجوا **لينين** الذي أشقى ملايين البشر بل مئات الملايين،

ومازال الشقاء موجودًا، وأخرجوا **داروِن** الذي قال: إن الحياة خلقت صدفة.

فأخرج لنا اليهود هؤلاء الذين يقولون: (إن الكون خلق صدفة) ولو أنه قيل لأحدهم: هذا المسمار في الحائط دق صدفة، أتى بنفسه من الجبال حتى دخل هذا الثقب، لضحك الناس منه، لو قيل له ساعتك التي بيدك، تروسها جاءت هكذا وانضبطت تلقائيًا من ملايين السنين لضحك من هذا الهراء وهذا الضلال وما قبِل ذلك، وإذا به في الوقت نفسه يقبل أن الدنيا بأسرها والسماوات والأرض والنفوس وكل شيء جاء صُدفة ويسير بأدق ما يمكن وأتقن ما يكون، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة:٧]، وقال تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل:٨٨].

فكيف يقبل بعد ذلك أن يكون كل هذا خلق صدفة؟ والعجب كل العجب أن هذا الهراء مازال يدرس لأبنائنا في مدارسهم تحت اسم (نظرية النشوء والارتقاء) رغم أنه ثبت علميًا بطلانها بكل المقاييس العلمية.

كل هذا من مظاهر الموت الذي حدث للقلوب وهو يقضي على حياتهم، فشتان ما بين الأحياء والأموات، فإنما حيت القلوب بعبادة الله وحقيقة الإيمان به.

لقد شرع الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لنا من العبادات ما تسعد به نفوس المؤمنين، وما تجد به حقيقة حاجتها وفقرها، لتستغني بالله - عَزَّ وَجَلَّ - عمن سواه، فنجد من خلال ما شرع الله من الصلاة والصيام والقيام، وما سن لنا رسول الله ﷺ منه ومن قراءة القرآن، ومن التدبر الذي أوجب الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لكتابه فقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤].

وشرع الله - عَزَّ وَجَلَّ - لنا من النفقة في سبيل الله، والصدقة الواجبة والمستحبة ما تتحرر به النفوس من سلطان المال، وشرع لنا - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - من الاعتكاف ما تتحرر به النفوس من سلطان العادات والتقاليد والخلطة مع الناس،

وكـذلك في الجهـاد والأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر والدعوة إلى الله سعادة أعظم سعادة، وشرع الله - عَزَّ وَجَلَّ - لنا من ترك الشهوات ما تتحرر به نفس المؤمن وتزكو وترتفع وتسمو وتقترب من الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، كلما سجد الإنسان كلما اقترب، وكلما صلى وصام ازداد نورًا، ولـذلك نحن أحوج ما نكون أن نستمر فيما شرع الله - عَزَّ وَجَلَّ - لنا من هذه العبادات، لا غنى عن الله طرفة عين، ولا نستغني عن عبادته أبدًا، وإنما يقع الفساد إذا توجهت القلوب لغير الله، وإذا لم تتوجه إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

إن الفساد يقع لو وجدت أرباب متفرقة وآلهة متفرقة كما قال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢]. فلو توجهت السماوات والأرض لغير الله بالطاعة والخضوع والمحبة لفسدتا والعياذ بالله كما صار حال كثير من الناس.

وقال - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء:٤٤]، فهي تسبح الله وتعظمه

لأنها فطرت وخلقت كذلك، لذلك نحتاج لكي يزول الفساد من قلوبنا وأبداننا ومجتمعاتنا أن نكون متوجهين إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وراغبين فيما عنده ومتبعين لكتابه.

ولا يعني هذا أن نظل في المساجد على الدوام، ولا يمكن أن تستمر الحياة على ذلك، ولكن يكون ضعفًا منا إذا كنا لا نستطيع أن نكون متوجهين إلى الله إلا في المساجد، نريد أن نعيش بالإسلام في المسجد وفي الطريق وفي العمل وفي البيت وفي كل مكان، فهكذا تكون العبادة الحقة، ليست فقط في المساجد، بل العبد الذي انتفع بما شرع الله هو الذي استمر على مرضاة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -. وذاك هو علامة قبول العمل، وأن عمله قد قبله الله.

كل هذه المعاني هي ثمرة الإيمان الذي أمدنا به القرآن وبينه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هذا الإيمان الذي يؤثر أعظم الأثر في سلوك الإنسان في حياته كلها.

وهذه الورقات محاولة للانتباه والتنبيه على هذه المسألة العظيمة.

فنسأله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أن ينفعنا به، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم إنه ولي ذلك وهو القادر عليه.

❁❁❁

الإيمان
وأثره في السلوك

الإيمان وأثره في السلوك

إن المتأمل لطريقة القرآن والسنة في بيان قضايا العقيدة يعلم بوضوح أن دعوة الرسل ليست مجرد تقرير لمسائل فكرية أو لقواعد نظرية تبنى على اللفظ وتخاطب العقل وحده، بل هي دعوة لإصلاح الإنسان كله. فردًا ومجتمعًا، ظاهرًا وباطنًا، عقلًا وروحًا، وعلمًا وعملًا، وإن كان الأصل في ذلك كله. صلاح القلب، كما قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٧-٨٩].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(١)، ويبين ذلك بوضوح إجماع أهل السنة على أن الإيمان قول وعمل.

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

قال الحسن رحمه الله: «الإيمانُ ما وقر في القلب وصدَّقه العمل».

ولقد كان لدخول الفلسفة وعلم الكلام والمنطق المأخوذ عن اليونان في تناول قضايا العقيدة والتوحيد - أو الإيمان على الاصطلاح الأوسع انتشارًا في الكتاب والسنة وهو الاصطلاح الذي ينبغي أن نعود إلى استعماله أكثر من غيره، كان لذلك أعظم الأثر في فقدان هذه المسائل أثرها في القلوب و الأبدان، وأصبح ما سمي «بعلم التوحيد» وطريقة علم الكلام؛ كلامًا جافًا سخيفًا، مجرد شُبه وردود، وقيل وقال، مما يجزم معه كل أحد أنه ليس طريق الرسل أبدًا، وكان من نتيجة ذلك أيضًا أن جاء من يقول إن قضايا العقيدة، كالأسماء والصفات والقدر والإيمان وغيرها مجرد ترف فكري عفا عليه الزمن لابد من تركه والعودة للواقع، فكان علاجًا للمرض بما هو أعظم ضررًا منه بل بسُم قاتل يُضيع أصل الدين، ويخلط بين الحق والباطل، والسنة والبدعة، بل الإيمان والكفر - والعياذ بالله -.

ومن هنا ندرك سبب إصرار السلف في بيان العقيدة على النص وعلى أن مصدر التلقي هو الكتاب والسنة على طريقة الصحابة - رضوان الله عليهم -، «وأن حكمهم في أهل الكلام الضرب بالجريد والنعال، والطواف بهم في العشائر ينادى عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واشتغل بعلم الكلام» كما قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ.

ولاشك أن من قرأ في بعض كتب العقيدة التي كُتب معظمها في عصور متأخرة عن القرون الثلاثة الأولى، يجد أن جزءًا كبيرًا منها إنما هو في رد شبه أهل البدع وإبطال باطلهم، وذلك لأن إبطال الباطل والكفر به شرط في بناء الإيمان بلا شك، ولكنْ ظن الكثيرون - حتى ممن ينتسب للسنة والسلف - أن هذا فقط هو التوحيد والإيمان، وإن رد الشبه هو نهاية الطريق، وغفل عن تدبر القرآن الذي أبطل الباطل وأزهقه، وأظهر الحق وأعلاه وقرره في نفوس المؤمنين، وهذه الكتب إنما تُهَيِّئ لنا جزءًا ضروريًا لتصحيح الإيمان والاعتقاد ولكنه ليس قطعًا هو نهاية الطريق.

فلنتأمل الآن شيئًا من طريقة القرآن والسنة في بيان الإيمان وقضاياه المختلفة وكيف ارتبط ذلك بواقع الإنسان وقلبه وحياته كلها، ولا بألفاظه وصيغ عباراته فقط، ذلك الذي طغى على طريقة المتأخرين. ولنبدأ بتوحيد الربوبية.

توحيد الربوبية وأثره في السلوك

هذه القضية التي كثيرًا ما نقول ونقرأ إن المشركين قد أتوا به فلم ينفعهم ولم يدخلهم في الإسلام، مما يجعلنا نمر عليه بسرعة دون تأمل وتفكر، مع أنه الأصل العظيم الذي به تتحقق العبادات كلها أي توحيد الإلهية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

روى مسلم في صحيحه عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ

رَقَدَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاسْتَيْقَظَ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فَقَرَأَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ فَأَطَالَ فِيهِمَا الْقِيَامَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ سِتَّ رَكَعَاتٍ، كُلَّ ذَلِكَ يَسْتَاكُ وَيَتَوَضَّأُ وَيَقْرَأُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ، ثُمَّ أَوْتَرَ بِثَلَاثٍ. فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا، وَمِنْ أَمَامِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا وَمِنْ تَحْتِي نُورًا اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا»(١).

فسل نفسك يا أخي منذ متى لم تنظر إلى السماء لترى آيات القدرة ومظاهر الربوبية؟ ومنذ متى وأنت لم تتفكر في شيء

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

يسير للغاية تعودت عليه يوميًا، النظر في مواقيت الصلاة فترى أن المغرب اليوم قد تأخر دقيقة عن أمس، وأن الفجر والشروق قد تأخر أو تقدم أو ظل ثابتًا بضعة أيام فهل تفكرت في هذا الاختلاف بين الليل والنهار، طولًا وقصرًا؟ في هذا النظام المحكم الدقيق، وهل نظرت في عظم هذه الأجرام: الشمس والقمر والأرض والكواكب؟ كيف هي مسيرة بقدرة الله - سبحانه - بهذه الحكمة التي لا نهاية لها؟! وهل تذكرت أن هذا الكون كله كان عدمًا محضًا فخلقه الله منذ ما لا نعلم من آلاف السنين، خلقه بهذا العلم وهذه الحكمة؟ فيستحيل لدى من عنده ذرة من لب وعقل أن يكون هذا عبثًا وباطلًا بلا معنى ولا هدف ولا حكمة ولا أمر ولا نهي ولا حساب ولا عقاب - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن ذلك -.

إن ذلك يرتبط فورًا عند أهل الإيمان بتذكر اليوم الآخر والإيمان بالجنة والنار، لأن من عاش لا يعرف أمر الله ونهيه، وحسب أن هذا الخلق عبث وباطل؛ فمصيره النار، فنعوذ

بالله من النار ونبرأ ممن أخزاهم الله من الظالمين الذين لا نصير لهم لأنهم فقدوا ولايتهم لله - عَزَّ وَجَلَّ - إذ جهلوا حكمته وقدرته كما جهلوا شرعه وأمره بعد أن ذكرتهم به رسل الله.

وتأمل دعاء المؤمنين وتضرعهم إلى ربهم وتوسلهم إليه باتباع نبيه ﷺ والإيمان به أن يغفر لهم ذنوبهم، وأن يكفر عنهم سيئاتهم إذ لا يزال المؤمن إذا نظر في عظمة الله وقدرته ومظاهر ربوبيته يرى نفسه مقصرًا مذنبًا لم يؤد حق الله أبدًا، ولم يحقق الشكر الواجب عليه ولا العبودية اللازمة له كما يرى هذا الكون كله في تنفيذ هذه العبودية والتزامها، مع أنه أعظم خلقًا منه ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧].

ثم لنتأمل قول الرسول ﷺ ودعاءه حين خرج إلى المسجد بعد طلوع الفجر وبدء ظهور أثر نور الشمس «اللّهم اجعل في قلبي نورًا»، فالله - سُبْحَانَه - خالق النور والظلمة، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

فكما رأيت قدرته على هذه الكائنات الهائلة وكيف يقلب ليلها ونهارها وظلمتها ونورها، فكذلك قدرته على قلوب العباد، فيتوسل إليه بإلهيته «اللّهم» أن يجعل في قلبه نورًا، وهو نور الإيمان والمعرفة والمحبة الصادقة والإخلاص والخوف والرجاء، فاللّهم اجعل لنا نورًا.

فهكذا رأيت الإيمان بالربوبية، وإقراره بالعبادة، والإيمان باليوم الآخر، وبالقدر، والولاء والبراء في مشهد واحد.

وتأمل قول النبي ﷺ عندما كان يأوي إلى فراشه **«اللّهم ربَّ السماوات السبع، وربَّ الأرض، وربَّ العرش العظيم، ربَّنا وربّ كلِّ شيءٍ، فالقَ الحبِ والنوى، ومُنْزِلَ التوراةِ والإنجيلِ والفرقان، أعوذُ بك من شر كلِّ شيءٍ أنت آخِذٌ بناصيتِه**(١)**، اللّهم أنت الأولُ فليس قبلَك شيء،**

---

(١) «شر كل شيء أنت آخذ بناصيته» أي من شر كل شيء من المخلوقات، لأنها كلها في سلطانه وهو آخذ بنواصيها.

وأنت الآخِرُ فليس بعدَك شيءٌ، وأنت الظاهرُ فليس فوقَك شيء، وأنت الباطنُ فليس دونَك شيء؛ اقضِ عنّا الدَّيْنَ، وأَغْنِنا منَ الفقرِ»(١)؛ فانظر إلى هذه السياحة القلبية في ملكوت السماوات والأرض والتفكر في مظاهر الربوبية والقدرة التي تشمل ما نراه وما غاب عنا، وسل نفسك أيضًا منذ متى لم تتفكر في انفلاق البذرة الصغيرة في باطن الأرض عن نبت ضعيف صغير يعجز الخلق جميعًا عن إخراج مثله من مثل هذه البذرة وإنما يضعونها ويقفون أمامها ينتظرون انفلاقها؟ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤و٦٣]

وهل استحضرنا معاني العبودية لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - باسمه «**الأول**» الذي يستوجب رؤية الفضل منه أولًا قبل عملك وعلمك، وقبل دعوتك وسعيك، وقبل وجود

(١) رواه مسلم، وغيره.

الأسباب التي قادَتْك إلى الخير؟ فترى نفسك فقيرًا عاجزًا، فيخلصك هذا من الإعجاب بالنفس، ذلك الداء العُضَال، ومن الشعور بالكمال الذي يجلب الكبر، ثم الحسد ثم كراهية ذم الناس وحب مدحهم، ليستشعر المرء مزيدًا من الكمال فيترتب عليه العمل من أجل ذلك وضياع الإخلاص، ألا تراها أمراض إبليس التي أخرجَتْه من الجنة؟ ورؤية فضل الله الأول يخلِّص من ذلك كله.

وهل استحضرنا العبودية لله باسمه «**الآخر**»؟ وذلك بحسن التوكل عليه؛ إذ من سواه ينقطع بالآخرية ويموت، ويبقى هو وحده أهلًا للتوكل عليه والثقة به﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الفرقان:٥٨].

وذلك بحسن إخلاص النية له، وجعل المنتهى من الإرادات إليه، فإن إلى ربّك المنتهى، فكما انتهت إليه الأواخر وكان - سبحانه - بعد كل آخر، فاجعل نهاية حبك وتقربك وإرادتك إليه دون من سواه.

وهل تعبدنا لله - سبحانه - باسمه «**الظاهر**» وذلك باستشعار عُلُوِّه وفوقيته وقهرِه على جميع الخلق، وشهودِ صعودِ الأعمالِ إليه وعرضِها عليه؟ قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠]. فيستحي المؤمن من صعود عمل يفضحه عند ربّ العزة، ويشهد كذلك نزول الأوامر الإلهية إلى جميع العوالم والخلائق، نافذة كما أمر في المطيع والعاصي، المؤمن الكافر، لا يملكون ردًا لها ولا اختيارًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

وهل استشعرنا العبودية لله - سبحانه - باسمه «**الباطن**» الذي ليس دونه شيء؟ وذلك بتزكية البواطن له وإصلاح السرائر فإن الغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية، والبعيد منه قريب، والقاصيَ منه دانٍ، قال تعالى ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد:١٠].

ولنتأمل دعاء الاستخارة وفزع المؤمن إلى ربه في الأمور

كلها وإيمانه بعلمه - سبحانه -، وقدرته الشاملة لقدرة العباد وإرادتهم واختيارهم، وإقرار العبد بعجزه وجهله، واستحضار التفويض الكامل والرضا بحكمه والاستعانة به دو ن من سواه.

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن فيقول: «إذا هَمَّ أحدُكم بالأمرِ فلْيركعْ ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقُل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ

كَانَ ثُمَّ رضني به. ويسمي حاجته»(١).

ولنقرأ قوله تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٢٦]، فإذا تدبرنا ذلك رأينا تفسير ما يقع حولنا من تبديل الملك والسلطان ومداولة الأيام، فسبحان الله، كما كانت أمم يقال عنها منذ سنوات معدودة على أصابع اليد قوى عظمى، إرهابًا للخلق وإرعابًا لهم، ولِبَثِّ اليأسِ من مقاومتهم، فأصبحوا اليوم لا يكادون يجدون قوت يومهم وتشتت شملهم وضاع مجدهم.

وإياك أن تظن أن قدرة الله ونكاله من الظالمين الظاهرين

(١) رواه البخاري، وغيره.

اليوم بعيدٌ فليست أمريكا واليهود وأعوانهم من المنافقين بأمثل من إخوانهم الذين سبقوهم، ثم لتنظر كيف كان هذا مقدمة لقضية الولاء والبراء ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٢٨] فمن أيقن بأن الملك لله فلا يغتر بمظاهر القوة الظاهرة لأعدائه فيواليهم خشية الدائرة كما قال سُبْحَانَهُ عن المنافقين ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ [المائدة:٥٢].

بل يرى المؤمن أنها أيام تداول بين الناس﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٠، ١٤١].

فتكون مواقفه دائمًا إرضاءً للملك الحق - سبحانه -، وموالاة لدينه ولو كان أولياؤه هم القلة المستضعفين، ولو كان حزبه المؤمنون غير ممكنين فإنه ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ [المائدة:٥٦].

وانظر في قول النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما في تأصيل عقيدة القضاء والقدر في القلب مع آثارها الإيمانية في سلوك الإنسان ومواقفه في حياته «يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»(١).

فلماذا إذن يكون العمل للناس وحساب حسابهم والخوف منهم أو رجاء نفعهم؟

وما ذكرنا من طريقة القرآن والسنة في تناول أمر العقيدة - أو الإيمان كما سبق أن ذكرنا - إنما هو بحق نقطة من بحر يحتاج منا - من كل واحد فينا في خاصة نفسه، ومنا كطائفة تتعاون على البر

---

(١) رواه الترمذي، وأحمد، وصححه الألباني(٧٩٥٧) «صحيح الجامع».

والتقوى ويُذكر بعضها بعضًا بالخير - إلى جهد وعمل.

ولاشك أن أصل هذه العبادات كلها وإصلاح القلب بها إنما هو الثبات على طريقة السلف، والبعد عن تأويلات الخلف التي ما أن تخطر بالبال حتى تشوش الفكر وتشغل القلب بهذه القضايا الكلامية السخيفة التافهة التي لا تُثمِر شيئًا في القلب ولا تسد فاقته ولا حاجته إلى ربّه، لأن واضعيها إنما هم أبعد الناس عن الله، لم يعرفوا له طريقًا، ولا ذاقت قلوبهم حلاوة الإيمان الذي جاءت به رسل الله - صلوات الله عليهم -.

وإن أعظم ما نحتاج إليه في هذه المسألة الخطيرة تأمل القرآن وتدبره «أَمِرُّوا الآيات على القلوب، ولا يَكُنْ هَمُّ أحدِكم آخرَ السورة» وصية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه امتثالًا لقوله تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، وليكن تركيز الفكر في آثار الأسماء والصفات ومعانيها مع سائر أصول الإيمان.

واعلم يا أخي - وفقني الله وإياك - أنه متى وجد في القلب توحيد الربوبية صحيحًا صادقًا كاملًا استتبعه ولابد توحيد الألوهية عند كل ذي لب وعقل كما نبه عليه القرآن، وأن استحضار معاني الربوبية مع الأسماء والصفات في القلب هو أصل كل العبادات التي يتوجه بها العبد لربّه كما يقول تعالىٰ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢]، ولو تأملت الآيات والأحاديث التي تستحضر فَهْمَ الربوبية ومعانيها، والتي تحث على التفكير في آثارها في الكون؛ لعلمت أهمية هذا النوع من التوحيد، وأثره في الإيمان والعمل، فتأمل مثلًا قوله تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤]، وتأمل خواتيم

سورة ﴿آل عمران﴾ التي كان يقرؤها الرسول ﷺ عند قيامه من الليل[١] مع النظر في السماء، وتأمل سورة الأنعام وغيرها؛ تجد هذا الأمر جليًا واضحًا، وأمرر هذه الآيات على قلبك؛ تجد لها أعظم الأثر في زيادة الإيمان، ودفع العبد لمزيد من العبادة لله والحب له و التوجه إليه.

وإليك بعض ما كتبه الإمام ابن القيم يصف حال أحد السابقين إلى الله؛ فهو يعينك - إن شاء الله- على فهم هذه المسألة.

قال رحمه الله: «فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه، واجتمع همه عليه، متذكرًا صفاته العلا وأسماءه الحسنى، مشاهدًا له في أسمائه وصفاته،

(١) رواه البخاري، ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: «فقام نبي الله ﷺ من آخر الليل فخرج فنظر في السماء ثم تلا هذه الآية في ﴿آل عمران﴾: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ..﴾ الآيات» الحديث.

قد تجلت على قلبه أنوارها، فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه، وقلبه قد آوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه وأسجده بين يديه خاضعًا خاشعًا ذليلًا منكسرًا من كل جهة من جهاته[1]، فيالها من سجدة ما أشرفها من سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة، وقيل لبعض العارفين: أيسجد القلب بين يدي ربّه؟ قال: «إي والله، بسجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة». فشتان بين قلب يبيت عند ربّه قد قطع في سفره إليه بَيْدَاءَ الأكوان[2]،

---

(١) انكسار العبد المؤمن لربه من جهة عبوديته وفقره وحاجته إلى الله في دينه ودنياه، ومن جهة حبه وتألهه للإله الحق، ومن جهة البلايا والمحن التي تصيبه، ومن جهة ذنوبه ومعاصيه.

(٢) الكون المشهود إذا انشغل الإنسان به عن ذكر ربّه كان كالصحراء القاحلة، والمؤمن السابق قد قطع هذه الصحراء فلم يشغله ما يراه عن شهود عظمة خالقه وكذا خرق حجب الطبيعة فإن آلاف الناس يحبون النظر إلى مناظر الطبيعة كما يسمونها ويرون جمالها =

وخرق حجب الطبيعة، ولم يقف عند رَسْم، ولا سكن إلى عَلَم(١)، حتى دخل على ربّه في داره(١) فشاهد عز سلطانه،

=وحسنها دون أن يستحضروا قدرة الباري وما يدل عليه جمالها من جماله - سبحانه - وعظمته، فصارت الطبيعة حجابًا لقلوبهم عن الله، والمؤمن السابق قد خرق هذه الحجب باستحضار قدرة الله وعظمته وجماله.

(١) الوقوف عند الرسوم أي الهيئات والأوضاع التي لا يتحمل أكثر الناس مفارقتها فالعادات والتقاليد مثلًا ومودة الأهل والأصحاب بسببها كفر أكثر بني آدم كما قال تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [العنكبوت:٢٥]، والمؤمن لم تقيده عادة أو تقليد عن الوصول إلى عبودية ربّه بل يضحي بكل شيء في سبيل الله.

والسكون إلى العلم أي الجبل، فهو العقبات التي تحول دون الاستمرار في طريق السير، إما عقبات يضعها الأعداء من أذى وتضييق بترك أكثر السائرين طريق الحق فرارًا منها، وإما من داخل =

وعظمة جلاله، وعلو شأنه، وبهاء كماله، وهو مستوٍ على عرشه، يدبر أمر عباده، وتصعد إليه شؤون العباد، وتعرض عليه حوائجهم وأعمالهم، فيأمر فيها بما يشاء، فينزل الأمر من عنده نافذًا كما أمر، فيشاهد(٢) الملك الحق قيومًا بنفسه، مقيمًا لكل من سواه، غنيًا عن كل من سواه، وكل من سواه فقير إليه ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾

=النفس من رغبات وشهوات وشبهات يترك أيضًا أكثر الناس الطريق من أجلها إلا السابقين.

(١) داره - عَزَّ وَجَلَّ - هي الجنة، قال الإمام الخطابي: هذا يوهم المكان، والله منزه عن ذلك، وإنما معناه في داره التي اتخذها لأوليائه وهي الجنة، وهي دار الإسلام، وأضيفت إليه إضافة تشريف مثل بيت الله وحرم الله. اهـ.

وليس معنى: «في داره» الحلول في شيء من مخلوقاته.

(٢) لا يعني رَحِمَهُ اللهُ إثبات الرؤية لله في الدنيا، وإنما يقصد العلم ومشاهدة آثار الملك.

[الرحمن:٢٩] يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويفك عانيًا[١]، وينصر ضعيفًا، ويجبر كسيرًا، ويغني فقيرًا، ويميت ويحيي، ويُسعد ويُشقي، ويُضل ويهدي، ويُنعم على قوم، ويسلب نعمته عن آخرين، ويُعز أقوامًا، ويُذل آخرين، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين، ويشهده كما أخبر عنه أعلم الخلق به وأصدقهم في خبره ﷺ حيث يقول: «إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلأَى لَا يَغِيضُهَا[٢] نَفَقَةٌ سَحَّاءُ[٣] اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَبِيَدِهِ الأُخْرَى المِيزَان يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ»[٤].

فيشاهده كذلك يقسم الأرزاق، ويجزل العطايا، ويمن

---

(١) العاني: أي الأسير.

(٢) تغيضها: لا ينقصها.

(٣) سحّاء: دائم الصب بالنعم.

(٤) رواه البخاري، ومسلم وهذا لفظه.

بفضله على من يشاء من عباده بيمينه، وبيده الأخرى الميزان يخفض به من يشاء، ويرفع به من يشاء عدلًا منه وحكمة، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فيشهده وحده القيوم بأمر السماوات والأرض ومن فيهن، ليس له بواب فيستأذن، ولا حاجب فيدخل عليه[١] ولا وزير فَيُؤتى، ولا ظهير فيستعان به، ولا ولي من دونه فيشفع به إليه، ولا نائب عنه فَيُعَرِّفه حوائج عباده، ولا معين له فيعاونه على قضائها، أحاط - سبحانه - بها علمًا، ووسعها قدرة ورحمة، فلا تزيده كثرة الحاجات إلا جودًا وكرمًا، ولا يشغله منها شأن عن شأن، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين[٢]، لو اجتمع أول خلقه وآخرهم

(١) ما أيسر أن يدخل العبد على ربّه فيناجيه ويكلمه مباشرة بلا واسطة يقوم فيتوضأ ويستقبل القبلة ويصلي فيتلو كلام الله ويدعوه ويسأله حاجته كلها.

(٢) العبد منا إذا كلمه اثنان يغلط، وإذا ألح عليه السائل ضاق وتبرم، والله - سُبْحَانَه - لا تغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين.

وإنسهم وجنهم، وقاموا في صعيد واحد، ثم سألوه فأعطى كلًا منهم مسألته ما نقص ذلك مما عنده ذرة واحدة إلا كما ينقص المخيط البحر إذا غمس فيه، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد، منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئًا، ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئًا، ذلك بأنه الغني الجواد الماجد، فعطاؤه كلام وعذابه كلام ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، ويشهده كما أخبر عنه الصادق المصدوق ﷺ حيث يقول: «**إِنَّ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورِ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ(١) مِنْ خَلْقِهِ**»(١).

---

(١) ما أدركه بصره من خلقه: أي جميع خلقه؛ لأن بصره - سُبْحَانَهُ - محيط بهم جميعًا.

انتهى كلام ابن القيم وسيأتي - إن شاء الله - مزيد بيـان في الأسماء والصفات وكيفية التعبد بها.

والمقصود هنا ألا يغفل الإنسان عن هذا الأمر العظيم ولا يستهين به، ظنًا منه أنه كان عند المشركين فلم ينفعهم، فإنما كان عندهم منه إقرار اللسان مع عمى القلب، ولو كان عندهم في قلوبهم صحيحًا صادقًا كاملًا، لقادهم حتمًا لتوحيد الألوهية، ولكنهم كما وصفهم الله ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

نعوذ بالله من الغفلة ونسأله أن يجعلنا من أولي الألباب.

❁ ❁ ❁

---

(١)رواه مسلم، وغيره.

أثر الإيمان بالأسماء والصفات

أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى، ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله وحده ودعاؤه بها، ويكون ذلك باستحضار معاني الأسماء الحسنى وتحصيلها في القلوب حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها وتمتلئ بأجل المعارف.

فمثلًا أسماء «العظمة والكبرياء والمجد والجلال»، تملأ القلوب تعظيمًا لله وإجلالًا له.

وأسماء «الود والرحمة والجمال والحمد وأنه ذو الفضل العظيم»، تملأ القلب محبة وشوقًا وحمدًا له وشكرًا.

وأسماء «العز والحكمة والعلم والقدرة»، تملأ القلب خضوعًا لله وخشوعًا وانكسارًا بين يديه.

وأسماء «العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة»، تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات، وحراسة

الخواطر عن الأفكار الرديئة والإرادات الفاسدة، وهذه المعارف هي روح التوحيد، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وإثبات الأسماء والصفات بترك الجحود والإلحاد والتأويل والتشبيه وسائر هذه الأسقام هو الأصل لهذا المطلب الأعلى.

وهذه المعارف ينبني على كل منها عبادة للربّ - تبارك وتعالى - بمقتضى هذه الأسماء.

ولنمثل لذلك بقوله تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد:٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتعبد بهذه الأسماء رتبتان:

الرتبة الأولى: أن تشهد الأولية منه تَعَالَىٰ في كل شيء والأخرية بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء؛ فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والربّ جَلَّ جَلَالُهُ ليس دونه شيء أقرب إلى الخلق منه.

والمرتبة الثانية: من التعبد أن يعامل كل اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تَعَالَىٰ بأوليته لكل شيء، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إفراده، وعدم الالتفات إلى غيره، والوثوق بسواه والتوكل على غيره، فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا حتى سماك باسم الإسلام ووسمك باسم الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقطعك في ذلك الغيب عمالات المؤمنين[1]، فعصمك من العبادة للعبيد، وأعتقك من التزام الرق لمن له شِكْلٌ ونديد، ثم وجه وجهة قلبك إليه - سبحانه - دون ما سواه؟

فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقَدَمِ الصدق في القِدَم، أن يُتِم عليك نعمة هو ابتدأها وكانت أوليَّتُها منه بلا سبب منك، واسْمُ بِهِمَّتِكَ عن ملاحظة

(١) عمالات المؤمنين: أي أعمال المؤمنين من صلاة وصيام...

الاختيار، ولا تَرْكَنَنَّ إلى الرُّسوم والآثار، ولا تقنع بالخسيس الدون، وعليك بالمطالب العالية، والمراتب السامية، التي لا تُنال إلا بطاعة الله، فإن الله - سبحانه - قضى أن لا يُنال ما عنده إلا بطاعته، ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقاه من بعيد، ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد، ثم اسْمُ بسِرِّك[1] إلى المطلب الأعلى، واقصر حبك وتقُّربَك على مَنْ سَبَقَ فضلُه وإحسانه إليك كلَّ سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب، وهيأها لك، وصرف عنك موانعها، وأوصلك بها إلى غايتك المحمودة، فتوكل عليه وحدَه، وعامِلْه وحده وآثِرْ رضاه وحده، واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا

(١) اسم بسرك: ارتفع بالتفات قلبك إلى تحقيق أعظم المطالب وهو تحقيق كمال العبودية والحب لله - سبحانه -.

تزال طائفًا بها مستلمًا لأركانها، واقفًا بمُلْتَزَمِها، فيا فوزَك ويا سعادتك إن اطلع - سبحانه - على ذلك من قلبك، ماذا يفيض عليك من ملابس نِعمِه وخِلَعِ أفضاله؟ «اللّهم لا مانعَ لما أعطيتَ ولا معطيَ لما منعتَ ولا يَنفعُ ذا الجد منك الجد».

ثم تعبد له باسمه «**الآخر**» بأن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءه، فكما انتهت إليه الأواخر، وكان هو - سبحانه - بعد كل آخر، فكذلك اجعل نهايتك إليه، فإن إلى ربك المنتهى، إليه انتهت الأسباب والغايات، فليس وراءه مرمى يُنتهىٰ إليه، ومن التعبد باسمه «**الآخر**» كذلك عدم الركون والوثوق بالأسباب؛ فإنها تنعدم لا محالة وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم بعدها، فالتعلق بها تعلق بما يعدم وينقضي، والتعلق به تعلق بالحي الذي لا يموت.

أما التعبد باسمه «**الظاهر**» فإن العبد إذا تحقق من علوه المطلق - سبحانه - على كل شيء بذاته، وأنه ليس فوقه شيء

البتة، وأنه قاهر فوق عباده ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ [السجدة:٥]، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠] صار لقلبه إمام يقصده، وربّ يعبده، وإله يتوجه إليه، بخلاف من لا يدري أين ربّه، فإنه ضائع مشتت القلب، ليس لقلبه قِبلة يتوجه نحوها، ولا معبود يتوجه إليه قصده.

وأما التعبد باسمه «**الباطن**» فإذا شهدت إحاطته بالعوالم، وقرب البعيد منه، وظهور البواطن له، وبُدُوَّ السرائر، وأنه لاشيء بينه وبينها، فعامِلْه بمقتضى هذا الشهود، وطهِّرْ له سريرتَك، فإنها عنده علانية، وأصلِحْ له غيبَك، فإنه عنده شهادة ، وزَكِّ له باطنك، فإنه عنده ظاهر» [انتهى من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتصرف يسير].

فانظر إلى شرف العلم بأسماء الربّ - تبارك وتعالىٰ - وصفاته، واشكر نعمه - سبحانه - عليك، وطهِّرْ قلبك من أرجاس الجحود والإنكار والتعطيل.

الإيمان وأثره في القلب عند المحن

إن للمحن فوائد عديدة في تحقيق صدق الإيمان منها:

✿ أن نوقن بأن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هو العليم الحكيم، فالله - عَزَّ وَجَلَّ - ما قدر هذه المحن إلا لحكم وغايات محمودة.

✿ وأن نوقن بأن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هو العزيز الحميد قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج:٨] .فهو - سبحانه - العزيز رغم أن أولياءه قد قُتلوا، وهو - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الذي قدر ذلك عليهم وهو مستحق للحمد على ذلك، فله الحمد على كل حال.

✿ إن الله - عَزَّ وَجَلَّ - ما قدر هذه الآلام على المسلمين إلا للخير الذي يريده ويحبه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وهكذا سنته - عَزَّ وَجَلَّ - في كل ما يقدر من الأمور المكروهة التي لا يحبها ولا يرضاها، فالله - عَزَّ وَجَلَّ - لا يحب الظالمين والله لا يحب الفساد والله يكره مساءة المؤمن ولكن يقدرها لما وراءها من المحبوب المرضي له.

روى البخاري عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربّ العزة - عَزَّ وَجَلَّ -: «وما تردَّدْتُ عن شيء أنا فاعلُه، تردُّدي عن نفس المؤمن، يكرَهُ الموتَ وأن أكره مساءته»(١).

الله يكره مساءة المؤمنين، ورغم ذلك قدر عليهم ما يكرهون ليجعل الله في ذلك خيرًا كثيرًا.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

✿ وهو - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - «**الحميد**» له الحمد في الأولى والآخرة.

✿ وهو - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - «**الحكيم العليم**» قدر هذه الآلام و المحن لكي تصدر منا أعمال معينة:

أهمها الإيمان: فإنما قدر الله مداولة الأيام بين الناس ليقع منا

---

(١) رواه البخاري.

الإيمان قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١].

فهذه أول الحكم ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ لكي نؤمن فالإيمان قول وعمل.

✪ قدر الله - عَزَّ وَجَلَّ - سنة المدافعة بين الناس لإصلاح الأرض وأهلها قال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وذلك أن الإيمان بدون مواجهة مع الكفر والطغيان يضعف في النفوس تدريجيًا، وهذا الأمر يكون ملحوظًا عند من لا قضية لهم، لا يستشعرون عند قراءة القرآن تلك المعاني العظيمة التي وقعت في قلوب الصحابة رضي الله عنهم يوم نزلت تلك الآيات.

ﷺ قدر الله - عَزَّ وَجَلَّ - هذه المحن لكي نكون صادقين في قولنا: آمنَّا كما قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:١-٣].

هو - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يعلمهم قبل وجودهم، يعلم كل شيء قبل خلق هذا الوجود كله.

فصفة العلم صفة أزلية من صفات الله - عَزَّ وَجَلَّ -، العلم الأول السابق قبل وجود المخلوقات، هو صفته - عَزَّ وَجَلَّ - كان بكل شيءٍ عليمًا ولم يزل - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بكل شيءٍ عليمًا، لكن المقصود هنا أن يعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين علمًا يحاسبهم عليه، علمَ شهادةٍ بعد ما عِلمَه علمَ غيب.

الله - عَزَّ وَجَلَّ - يحب الصدق الفعلي والقولي، هذا الصدق الفعلي الذي أخبر عنه القرآن ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ

صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٣]، فهو - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يحب هذه الدماء التي تراق في سبيله؛ لأنها أريقت من أصحاب الصدق حبًا له ونصرة له - عَزَّ وَجَلَّ - أي نصرة لدينه، وهو - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يتقبلها منهم، ويبعثهم يوم القيامة «**اللون لون الدم والريح ريح مسك**»(١) كما أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وهو - سبحانه - قدر ذلك ليُظهر المؤمنين ويُظهر المنافقين قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٧].

✿ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يحب أن يرى من عباده الصبر

---

(١) رواه البخاري.

الذي هو المفتاح للتيسير والفرج، فالله - عَزَّ وَجَلَّ - قدر الكربات اختبارًا وبلاءً للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان:٢٠]، فهو «البصير» - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قبل أن يصبروا وبعد أن يصبروا، وهو - عَزَّ وَجَلَّ - يحب أن يرى منا الصبر فيثبتنا ويثيبنا عليه ﴿ أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾، هو - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قدر أن يبتلي المؤمنين بشيء من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، فهذه الابتلاءات ليست تجري عليهم بكيد أعدائهم، إنما تجري عليهم بتقدير الله - عَزَّ وَجَلَّ- ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ ولم يقل: «وَلِيُصِيبَكُم» وإنما قال - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦-١٥٥]

كيف تحصل الصلوات؟ وكيف تحصل الرحمة؟ وكيف يحصل

الصبر؟ وكيف يشهد المؤمنون أنهم مِلك لله - عَزَّ وَجَلَّ - يفعل بهم ما يشاء، وأنهم إليه راجعون؟

كيف يحدث ذلك بغير آلام؟!

إن ولادة المولود لابد أن تسبقها آلام المخاض وهكذا في ولادة التمكين لأمة الإسلام.

فالأمة الإسلامية لا تموت بإذن الله - تبارك وتعالى - إلى يوم القيامة كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ أَو خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ كَذَلِكَ»(١).

✿ قدر الله - عَزَّ وَجَلَّ - هذه المحن لكي يسمع تضرعنا ودعاءنا واستغاثتنا قال تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام:٤٣].

هذا التضرع يحبه الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وهو يحب أن

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

تقوم القلوب قبل الأقدام ذليلة له منكسرة، فقيرة إليه، تعلم أن لا ناصر لها في الأرض سواه.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]، فلابد لنا أن نتشبه برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ففي ليلة الأحزاب، اجتمعت أحزاب العرب على الإسلام، والمقاييس في ذلك الوقت - بميزان الناس - ليست في صالح أهل الإسلام في تلك الليلة، ليلة مظلمة شديدة الريح، شديدة البرد، في هذه الليلة التي لم يبق مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخندق إلا فئة قليلة بعد ما رحل الكثير وتعللوا بأن بيوتهم عورة وقد قَالَ تَعَالَىٰ ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب:١٣].

قام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي ويلجأ لله - عَزَّ وَجَلَّ - ويتضرع إلى الله في هذه الزلزلة التي قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ عنها: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب:١١]

قام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو الله - عَزَّ وَجَلَّ -: «**اللّهم منزل الكتاب، ومجريَ السحابِ، سريع الحساب، هازمَ**

الأحزابِ اللّهم اهزِمْهم وزلزلهم»(١) يصف حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ذلك الموقف فيقول: لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ الله مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»؟ فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ، قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثًا ثُمَّ قَالَ: «**قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ**» فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ قَالَ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**» فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم: «**وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ**»، وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ، فَأَلْبَسَنِي رَسُولُ الله

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

ﷺ مِنْ فَضْلِ عَبَاءَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَالَ: «**قُمْ يَا نَوْمَانُ**»(١).

ورواه ابن إسحاق بزيادة: فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قِدرًا ولا نارًا ولا

---

(١) رواه مسلم.

قال النووي: قوله: «أخذتنا ريح وقر» وهو البرد. وقوله بعد هذا: «قررت» أي بردت، وقوله: «لا تذعرهم» لاتفزعهم علي ولا تحركهم علي، **قوله**: «فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام» يعني أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس ولا من تلك الريح الشديدة شيئًا، بل عافاه الله منه ببركة إجابة النبي ﷺ وذهابه فيما وجهه له، ودعائه ﷺ له، واستمر ذلك اللطف به ومعافاته من البرد حتى عاد إلى النبي ﷺ فلما رجع ووصل عاد إليه البرد الذي يجده الناس، وهذه من معجزات رسول الله ﷺ .باختصار من شرح النووي على صحيح مسلم.

بناءً، فقام أبو سفيان فقال: «يا معشر قريش لينظر امرؤٌ مَنْ جليسه؟ قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان على جانبي فقلت له: من أنت؟ فقال: فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون.. فارتحلوا إني مرتحل».

فترحل قريش وغطفان بدعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن الأمور العظمى تتقرر في الصلاة بدعوة صادقة، أثناء التضرع تنكشف البلايا والمحن، هكذا كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الدوام متضرعًا إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - مسبحًا ذاكرًا، لأن التضرع إلى الله من الحكم البالغة التي من أجله قدر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وجود المحن.

✿ عند المحنة يظهر صدق التوكل على الله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم:١١]، وحسن

تفويض الأمور إليه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - والثقة الكاملة به وإليك هذه المواقف من أنبياء الله عند الشدة:

قال تعالى في حق النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٣: ١٧٥].

إفراد الله - عَزَّ وَجَلَّ - بالخوف والرجاء، وأن تنتظر من الله الفرج لا من سواه.

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها النبي صلى الله عليه وسلم حين ﴿ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا

﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

✿ ومن هذه الفوائد: ظهور النفاق علانيةً بعد أن كان مستكنًا في القلوب، فلا يتولى منافق أمرًا للمسلمين بعد ذلك

✿ ومن هذه الفوائد ما دل عليه قوله تَعَالَى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥، ٦].

الله - عَزَّ وَجَلَّ - فعال لما يريد وهو عزيزٌ ذو انتقام، وحتى يظهر ملكه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فلابد من إعزاز وإذلال، ولابد من تقليب الممالك ليعلم الناس أن الملك لله وحده لا شريك له ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

فلابد من حصول هذا الإعزاز وهـذا الإذلال؛ لـنعلم أن الله وحده هو المعز المذل وأنه هو وحده الخافض الرافع.

ويظهر من خـلال المحـن أنـه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - المـولى والنصير وأنه هو العزيز، قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ [آل عمـران: ١٥٠]، ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨].

والمسلمون لا ينتصرون بقوتهم ولا بعُدتهم، وإنما ينتصرون بنصر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وتوفيقه، وهذا الأمر يظهر عند حدوث المحنة، عندما يستحضر المؤمنون أسماء الله - عَزَّ وَجَلَّ - وصفاته، فإن النصر حليفهم قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ

فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:٢٤٩-٢٥١].

الأمر بيده - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يقلب الأمور كيف يشاء، يثبت من يشاء ويهدي من يشاء - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وهو الغالب على أمره، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١].

وهو يحب أن يتعرف إلى عباده من خلال أفعاله ومقاديره - عَزَّ وَجَلَّ - من أجل ذلك قدر الآلام. فيقوم العبد داعيًا متضرعًا مستعينًا راجيًا الله، يتشبه برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ليلة بدر وهو يرى قريشًا معها إبليس شخصيًا، قد جاءت بحدِّها وحديدها وأشرافها وكبرائها يحادّون الله ورسوله ﷺ، فما نام رسول الله ﷺ تلك الليلة، وإنما ظل يصلي ويبكي ويتضرع إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

يصف علي رضي الله عنه هذا الموقف فيقول: «لقد رأيتنا يوم بدر، وما منا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه كان يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح ثم إنه أَصَابَنَا مِنْ اللَّيْلِ طَشٌّ مِنْ مَطَرٍ، فَانْطَلَقْنَا تَحْتَ الشَّجَرِ وَالْحَجَفِ نَسْتَظِلُّ تَحْتَهَا مِنْ الْمَطَرِ وَبَاتَ رَسُولُ الله ﷺ يَدْعُو رَبَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْفِئَةَ لَا تُعْبَدْ**». قَالَ: فَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ نَادَى: «**الصَّلَاةَ عِبَادَ الله**» فَجَاءَ النَّاسُ مِنْ تَحْتِ الشَّجَرِ وَالْحَجَفِ فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ وَحَرَّضَ عَلَى الْقِتَالِ»[١]، وفي هذا أنزل الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿ إِذْ

(١) رواه أحمد والبزار.

تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال:٩].

الله يحب أن نستغيث به، ولا يغيثنا أحد سواه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -، ولا ملجأ لنا إلا إليه، والتضرع بين يديه من أعظم أسباب كشف الكرب والهم.

والله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - وعد بالإجابة، وأخبر - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - أنه يجيب دعاء عباده ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل:٦٢].

الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - يحب أن يسمع التضرع والدعاء، وينزل السكينة على ذلك ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤].

وهو - سُبْحَانَهُ - قدر المواجهة مع الكفر لكي يلجأ إليه المؤمنون، لكي يُنزل السكينة في قلوبهم ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، فهو - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - يحب ذلك، ومن أجل ذلك قدر المحن والآلام، فله الحمد - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - على ذلك كله.

والمؤمن إذا نظر إلى أسمائه وصفاته - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - التي من مقتضياتها تقدير هذه الآلام، لذابت الآلام، وكانت حلاوة محبة الرحمن - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - والشوق إليه - عَزَّ وَجَلَّ - والرضا به وتفويض الأمور إليه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - تذهب هذه الآلام.

ويوم القيامة يود المستضعفون أنهم لو سحبوا من يوم ولدتهم أمهاتهم إلى يوم القيامة على وجههم في الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

هذه حلاوة الإيمان وجدها عبد الله بن حذافة رضي الله عنه وهو في أشد لحظات الابتلاء وهو يرى أصحابه عظامًا تلوح بعد ما أُلقوا في الماء الذي يغلي، فظنه ملك الروم أنه قد جزع من الموت! فلما سأله عن سبب بكائه قال عبد الله بن حذافة رضي الله عنه: «أبكي لأن لي نفسًا واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وودت لو أن لي بعدد شعر رأسي أنفسًا يفعل بها ذلك في الله - عَزَّ وَجَلَّ -».

سُبْحَان الله.. على هذه المحبة التي قذفها الله في قلوب

أوليائه، وجعلهم - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لا يرون تلك الآلام، لهذا يود أهل العافية في الآخرة لما يرون من الثواب أن لو قرضت جلودهم بالمقاريض في سبيل الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

نسأل الله العافية ونسأله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الإنابة إليه وحسن عبادته - عَزَّ وَجَلَّ -، لأن البعد عن الله هو الجالب لألم الخوف والرعب، فإن الأمن والأمان قرينان، والظلم والخوف قرينان، فالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هو وحده الذي بيده الأمر كله..

«اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا».

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس